نسيب عريضة شاعر الطريق

بقلم ميخائيل نعيمة

اطل القرن العشرون على الديار العربية وهي رازحة تحت اثقال أربعة قرون من الحكم العثماني . يتبختر الفقر في ارجائها ، ويتربع الذل في قلوب بنيها وبناتها ، وتخيّم العتمة على عقول كبارها وصغارها . وليس في تلك العتمة سوى ضباع التعصب الديني وذئابه تسرح وتمرح ، وتنعم من قبل الدولة الحاكمة بعطف عظيم . اما الاقلام حيثما وجدت — إلا القليل منها — فكانت ملجمة ولا عمل لها غير تمجيد الحكام والاسياد ، وغير التلهي بالاحاجي اللغوية والبهرجة البيانية. إن نظمت او نثرت زحل نظمها ونثرها عن صفحات القواميس لا عن صفحات القلوب والافكار، وفاحت من الاثنين روائح التقليد والزلفى والمجاملة والخنوع . فالأدب السائد آنئذ كان في الغالب ادب القصيدة وادب المقالة . والشاعر الشاعر والناثر الناثر من نظم الكثير ونثر الكثير بأقل ما يمكن من الهفوات اللغوية والعروضية ومن غير ان يقول شيئاً حرّياً بالقول .

لقد كان الفكر مغلقاً ، والذوق آسناً ، والارادة الخلاّقة مشلولة. فما يجرؤ شاعر ان يحيد في القصيدة الواحدة عن الرويّ الواحد ، ولا ان يتخطى الابواب التي طرقها الشعراء العرب منذ اقدم الازمنة من فخر وحماسة ، ومدح وهجاء ، وغزل ورثاء وما اليها ، ولا ان ينوّع في الاسلوب والهندسة . فالفخر والحماسة والمدح مغالاة يمجّها الذوق السليم ويعافها القلب الصادق. والهجاء قدح وشتيمة ونميمة ؛ والرثاء تفجّع بغير غصة وبكاء بغير دموع ؛ والغزل وصال وصدّ ، وعتاب وشكوى ، واكباد حرّى ، وأجفان مقرّحة ، وسهاد وقتاد ، وخدود ونهود الى آخر مفاتن الحب ومتاعبه كما تراها عين بدويّ ويحسّها قلب صحراوي .

ذلك الادب بعينه هو الذي حمله المهاجرون الى ديار غربتهم في بدء هجرتهم مثلما حملوا الجو الروحي القاتم الذي نشأوا فيه وترعرعوا. وفي مثل ذلك الجو كان على الحركة الادبية التجديدية ان تشق طريقها . وقد شقته بما يشبه الاعجوبة . إذ ليس في مستطاع اي باحث ان يحلل الظروف الخارقة او ان يعلل العوامل الخفية التي جمعت على صعيد واحد وفي زمان واحد حفنة من الشباب السوري واللبناني فكانت « الرابطة القلمية » . وكان انطلاق في الادب وانعتاق ، وكان شعور حي وفكر ثائر ، وكان صدق واستقلال ، وكانت جرأة وحماسة ، وكان فن وهدف مع الايمان بقدسية الادب ورسالته . وإذا الادب اكثر من قصيدة ومقالة. فهناك القصة ، والرواية ، والمسرحية ، والملحمة . وهناك النقد الذي ليس للتشفي ولا للتبخير ، بل للتمحيص والتحليل . وهناك اقلام تتغلغل في زوايا النفس فلا تحجم عن نبش مخبآتها وعرضها على الناس .

لقد كان من ثورة « الرابطة القلمية » على التقليد ان خلقت أدباً إنسانياً شاملاً ، وخلقت شعراً لا أثر فيه للفخر والحماسة والهجاء ، والتسكع في المدح ، والتفجع الكاذب في الرثاء . اما الغزل فقد اقلعت فيه عن اساليب القدامى. واما القوالب الشعرية فقد زاوجت فيها ما بين البحور الكاملة ومجازيئها ، والبحور التي تدانيها في جرسها ، ونوعت القوافي ، فقسمت القصيدة الواحدة الى مقاطع ، جاعلة لكل مقطع قافية غير التي للذي قبله أو بعده . ومن ثم فقد ربطت القصيدة من اولها الى اخرها بفكرة واحدة او قصد واحد بحيث لا تبدو مفككة الاوصال، عديمة الانسجام . ذلك مع الافتنان في تبديل الصور وتلوينها، وفي تزاوج الانغام وتنويعها . وجميع هذه الصفات — وقد باتت اليوم مألوفة — تتجلى على اتم وجه في نتاج شعراء «الرابطة» وعلى الأخص في نتاج نسيب عريضة .

ولد نسيب عريضه من ابوين مسيحيين ، ارثوذكسيين في مدينة حمص عام ١٨٨٧ وتلقى دروسه الابتدائية في المدرسة الروسية هناك . ومنها انتقل عام ١٩٠٠ الى دار المعلمين الروسية في ناصرة الجليل . وقد جئتها بعده بعامين . فما لبثت ان انجذبت اليه بفضل ما أنسته فيه من دماثة في الخلق ، واتزان في العقل ، وطهارة في القلب واللسان ، وذكاء في

الذهن ، الى وداعة في النفس ، وطبع مسالم يكره الضغينة والخصام وميل فطري الى المطالعة والتحصيل . ولأنه كان كذلك ، وكان الاوّل بين رفاقه في صفّه ، اختارته المدرسة للسفر الى روسيا ومتابعة دروسه هناك على نفقة الجمعية الامبراطورية الفلسطينية .

كان ذلك في العام ١٩٠٤ فحالت الحرب الروسية اليابانية دون سفره . ولذلك عاد الى الناصرة ليمكث في مدرستها سنة اخرى . وفي صيف ١٩٠٥ ودّعناه وودعنا على امل ان يسافر في الخريف الى روسيا .

ولكنه اختار في النهاية ان يسافر الى نيويورك بدلاً من روسيا . اقول « اختار » ولعله من الاصحّ ان اقول « أرغم » ، فقد كان لوالده واعمامه مصنع للنسيج من النوع الذي اشتهرت به حمص حتى الماضي القريب. وكان بعض ابناء عمّه قد سبقوه الى نيويورك فلاقوا في تجارتهم حظاً من النجاح . وشقّ على والد نسيب ، وذهنيّته ذهنية التاجر ، ان لا يكون لابنه من التجارة مثل حظ ابناء عمه ، وان يجازف بمستقبله في بلاد قصيّة كروسيا فيكون نصيبه من علمه نصيب الكثير من قبله — وأعني القلة والحرمان والشقاء .

ومن هذا القبيل جنى الوالد على نفسه وعلى ولده من حيث لا يدري فما كان الاول — ولن يكون الاخير — بين الوالدين الذين يختارون لأولادهم طرقاً غير التي اختارتها لهم الحياة . فيشقون ويشقى اولادهم معهم عندما تردّهم الحياة جميعاً الى الطريق القويم .

اشتغل نسيب اول ما اشتغل في مهجره « ماسك دفاتر » عند ابناء عمه . ولكن قلبه وفكره وخياله وإرادته وكل جوارحه كانت تهرب ابداً الى دفاتر غير تلك التي تحفل باسماء الزبائن ، واصناف البضائع ، والاسعار ، والارقام السود والحمر . فكان ينظم الشعر في اوقات فراغه أو يلجأ الى الجناح الشرقي من مكتبة نيويورك العمومية فيغرق الساعات الطوال في مطالعة ما يستهويه من المجلدات العربية . وقد دعاه بعضهم « دائرة المعارف » لكثرة ما وعى من أخبار العرب ونوادرهم . وكان من الطبيعي ان يضيق صدره بالتجارة بعد بضع سنوات فطلقها ليؤسس مطبعة « الاتلنتيك » وليصدر مجلة « الفنون » . وكان يحسبه طلاقاً لغير ما لقاء .

صورة تذكارية تجمع بين الاستاذين المرحوم نسيب عريضة (الجالس الى اليسار) والاستاذ ميخائيل نعيمه كاتب المقال (الجالس الى اليمين) ووراءهما صديقان . وقد التقطت هذه الصورة في الناصرة .

إلا ان « الفنون » التي كانت بمظهرها وترتيبها وتبويبها فتحاً جديداً في دنيا الصحافة العربية ، والتي تلاقت على صفحاتها اقلام فتية كان لها الفضل الاكبر في خلق النهضة الادبية الحديثة ما لبثت ان احتجبت بعد صدور عددها العاشر لان نفقاتها كانت تفوق دخلها بكثير. وباحتجاب المجلة توقفت المطبعة عن العمل . فكانت الخسارة جسيمة على قلب نسيب وجيبه معاً . وكان وقعها عليه وقع الصاعقة . وعلى الاخص لان المال الذي دفنه في مشروعه لم يكن ماله . بل كان ابوه هو الذي امدّه به من حمص .

كان ذلك قبيل الحرب العالمية الاولى . وعاد نسيب يجمع ما تبقى من فلول آماله وعزيمته ليعيد الكرّة. فقد اصبحت الفنون لحماً من لحمه ودماً من دمه . وتمكن ، بمعاونة بعض الاصدقاء ، من بعثها ثانية عام ١٩١٦ إلا ان الاقدار ما برحت تعانده . فلم يمض عامان حتى لفظت « الفنون » انفاسها . واذ ذاك أقلع نسيب نهائياً عن التفكير بردّها الى الحياة . وعاد الى التجارة يستعين بها على سدّ رمقه . وفي هذه الاثناء توفي أخوه سابا الذي كان قد التحق به في نيويورك . وأحدقت به الاحزان والقلة والوحشة . فلاذ منها بالزواج . فلم يكن الزواج ذلك الملاذ الذي كان يرجو . إذ أنه لم يرزق اولاداً ، ولم يتغلب على وحشته ، ولا اتسعت موارد رزقه بل ، على العكس ، أخذت تضيق حتى كادت تنسدّ.

عندها عاد نسيب إلى قلمه يستعين به على تحصيل كفافه ؛

فاشتغل محرراً في جريدة « السائح » ثم في « مرآة الغرب » ثم في « الهدى » ثم مترجماً في مكتب الانباء الاميركي إبان الحرب الاخيرة . وكان حزنه على شقيقه المتوفى في ربيع حياته ، ثم مآسيه الروحية والمادية الكثيرة التي عقبت احتجاب « الفنون » قد هدت جسمه الجبّار . فطارت منه روحه الطاهرة في مدينة بروكلن يوم الخامس والعشرين من آذار سنة ١٩٤٦ .

كان ديوان « الارواح الحائرة » في عهدة المجلد عندما لفظ صاحبه آخر انحابه، وهو الاثر الوحيد الذي نشر له حتى الآن، ولولا بعض الاصحاب والمعجبين الذين اكتتبوا لنشره لبقي حتى اليوم في ذمة الاقدار. ولنسيب آثار شعرية غير «الارواح الحائرة» . وآثار نثرية قيمة منها قصتان بديعتان : «ديك الجن الحمصي » و « حديث الصمصامة ». وهذه كلها نشرت في الصحف ولكنها لم تنشر بعد في كتاب .

* * *

حسبك أن تقرأ قصيدة او قصيدتين من نظم نسيب عريضه لتشعر انك في حضرة شاعر فذ ، رحب الخيال ، مرهف الحس ، رفيع الذوق ، خفيف الظل ، صافي النبعة ، صادق النبرة ، ولانه كذلك تراه يتنكب السبل المطروقة والقوالب المألوفة ، ويترفع عن كل مبتذل في اللون واللحن ، وفي المبنى والمعنى . فلا يتملق ولا يماري ، ولا يتصنع ولا يتحذلق ، ولا يبرق ويرعد، او يرغي ويزبد ليهول عليك بالضجيج والصخب . بل هو يبث شعوره بالحياة بثاً أشبه ما يكون برذاذ المطر يتساقط في سكينة الليل على البقاع العطشى فيؤنسها ولا يزعجها ، فيحييها ولا يجرفها ، على عكس ما كان يفعله السيل العارم إذ يمر بالارض مراً عنيفاً خاطفاً فيجرف التراب الذي على سطحها ، اما قلبها فيتركه في عطش وفي جفاف .

ما ندّ صاحب « الارواح الحائرة » عن باقي إخوانه في « الرابطة القلمية » من حيث شعورهم بالقلق المادي في ديار هجرتهم ـ ذلك القلق الذي كان يصرفهم قسراً إرادتهم إلى ميادين التجارة والصناعة لحفظ الرمق وصون ماء الوجه. فقد كان ميلهم الفطري إلى الادب يأبى عليهم التسكع على عتبة الدولار . وكانت الحاجة لا ترحمهم فتحملهم على وأد الكثير من بنات قرائحهم ترضيةً للدولار . وفي ذلك ما فيه من مرارة الرغائب المكبوتة، والآمال المهدورة، والارادة المقهورة . ولا هو شذ عن إخوانه من حيث شعورهم بغربتين ملازمتين : غربتهم عن الوطن الماديّ ، وغربتهم عن الوطن الروحي . ولعل الغربة الثانية كانت الاقسى على قلب نسيب عريضه . فلا عجب ان تسمع للاسى في شعره انغاماً شجية وان تبصر فيه كل ألوان الحيرة والوحدة والوحشة والحنين. ثم لا عجب في ان يطرح الشاعر على ذلك كله وشاحاً من الصوفية العميقة الصافية كالتي تطالعها على الاخص في منظومته البديعة « على طريق إرَم » .

قضى شاعرنا وهو ما يزال في الطريق الممتد بين وطنه الترابي ووطنه الروحاني فلا هو انعتق من الاول، ولا هو ادرك الثاني، بل ظل قلبه حتى آخر نبضة يتلفت حيناً إلى العاصي ورباضه والى عروس العاصي فيناجيها :

« يا حمص ، يا أم الحجار السود !.. »

وحيناً ينطلق في ضوء الخيال البعيد الى تخوم وطنه الآخر فيهتف :

« إيه ضوئي البعيدْ ،
لُحْ ولحْ ما تريد ،
ليس طرفي يحيد
عنك حتى يعود
لترابٍ ودودْ
لُحْ ولح في الفضاء
قد سمعتُ النداء
ودليلي الرجاء
فمساه يقود
ظامئاً للورود »

أو هو ينتهر قلبه اللجوج فيقول :

« فاصمتْ وسِرْ في السكونِ
على طريق الجنون
لعله بعد حين
يبدو لنا وجه ربي .. »

وانا لو شئت ان أصف نسيب عريضه بكلمتين لا اكثر لاسميته « شاعر الطريق » ، فما وقعت في كل من وقعت عليهم من شعراء عرب وغير عرب على شاعر أفاض وأبدع في وصف طريق الحياة وما يرافق سالكيه من تحرق على معالم تركوها خلفهم وحنين الى معالم تلوح لهم من بعيد وتتمنع عليهم إلى حد ما فعل ذلك صاحب «الارواح الحائرة». فهو يحس الحياة سيراً متواصلًا لا راحة فيه ولا توقف . ويحس الوجود طريقاً غاب أوله في غيبوبة الجهل وتوارى آخره في غيبوبة المعرفة . فلا ينقطع يحث قلبه إلى الامام .

« يا رفيقي على طريق الحزانى
سر فان القضاء أقصى مدانا .. »

« لماذا وقفت بخوف وحيره
أيا نفس عند الطريق العسيره ؟
ألا امشي ، فان الحياة قصيره
ألا امشي !
ألا امشي وبعد الجهاد الحقيقي
سندرك آمالنا في الطريق
ونجني الاشعة قبل الشروق
ألا امشي ! »

أما ترى اي خيال خلاّق ، وذوق لطيف ، وفن بديع تطل عليك في قوله « سندرك آمالنا في الطريق ونجني الاشعة قبل الشروق » ؟

ولنعد الى الطريق :

« يا اخي ، يا اخي المصاعب شتى
وبعيدٌ مرادنا والموارد
وامام العيون درب عسير
لم تسر قبلنا عليه الاوابد
فلنسر في الظلام ، في القفر في —
الوحشة ، في الويل — في طريق المجاهد .
فلنسر ، فلنسر ، وإما هلكنا
قبل ادراكنا المنى والمواعد
فكفانا انّا ابتدأنا ، وانّا ،
إن عجزنا ، فقد بدأنا نشاهد . »

اجل ! السير ، السير ! والطريق ، الطريق ! وفي نهاية الطريق ذلك الهدف الذي لا يوصف — هدف المعرفة والطمأنينة ، والانعتاق من قيود اللحم والدم . ذلك ما كان يحسه نسيب عريضة إحساساً عميقاً متواصلاً . وذلك الاحساس بما يلابسه من ألم وجوى ووحشة وحيرة هو ما صوّره الشاعر تصويراً ما عرفتُ له مثيلاً عند شاعر سواه . فهو ينوّع الوانه ، ومواده ، واجواءه ، وحالاته النفسية تنويعاً لا يشعر القارىء معه باقل تخمة او ملل كما هي الحال مع الكثير من الشعراء الذين لا ينفكون يعالجون موضوعاً واحداً الى ان يصبح في ايديهم جيفة وهم لا يشعرون .

ولعل ابدع ما نظمه نسيب في الموضوع الذي وقف عليه معظم نتاج قريحته قصيدته التي عنوانها « طريق إرَم » . وهي قصيدة طويلة متنوعة المقاطع والاوزان ، غنية بالالوان والألحان ، مشبعة بصدق الاحساس ، بعيدة عن التحذلق والزخارف الكلامية . وهو يصور فيها جهاده وجهاد الذين هم مثله في طريقهم الى الموطن الروحي الذي رمز اليه بمدينة ارم ذات العماد . واليك بعض أبيات منها . قال في المقطع الذي دعاه « اول الطريق » :

« قم نتخذ للمنى جناحاً
يطير من عالم الحدودْ
عسى نرى في السماء درباً
نسير فيه ولا نعود
نؤمّ خدر الرؤى ونحظى
بما حُرمناه في الوجود
قم واترك الجسم حيث يبلى
فالموت خير من الجمود »

وقال في مقطع آخر أسماه « القلوب على الدروب » :

« يا حداة القلوب رفقاً
طال درب الهوى وشقّا
فالى مَ القلوب تشقى ؟
هل لها وقفة فتلقى
راحة في الدروبْ يا حداة القلوب ؟

★

يا قلوباً غدت نياقاً
سامها الوجد ان تساقا
... لا تهمنك الرمالُ
لا يعوقنك العقالُ
قد سرى قبلك الجمال
وبه النور والكمال
فاسرعي يا قلوب واهتدي بالطيوب »

فما أعذب قوله « واهتدي بالطيوب »

وقال في المقطع الرابع من القصيدة ، وعنوانه « القفر الأعظم » :

« نحرتُ ناقة وجدي
على ضريح غريبِ
وقلت للقبر : هذا
قِرى الأسى والوفاء
اجمعْ ضيوفك اني مضيفهم في العشاء
فلم يلبِّ ندائي
سوى الصدى في الفضاء
ولم يجىء لطعامي ضيف ولا لشرابي
ضاعت وليمة قلبي بين الحصى والتراب

وقال في المقطع الخامس وعنوانه « القيروان » :

« يا ركبُ ، يا ركب صبراً
لم يبقَ الا اليسيرُ
لا ترجعوا لقفار فيها الأماني تغور
أمامنا الطود فامضوا
على الشعاب نسير
ولنرقَ طود التجلي ففي الذرى نستنير »

هذا شعور لا يتكل في الوصول الى سمع القارىء وقلبه على فخامة اللفظ وجزالته ، وعلى امتداد الوزن ورنة القافية شأن الكثير من قديم الشعر العربي وحديثه . وانما يتكل على ما فيه من رحابة في الخيال ، وصدق في الاحساس وقوة في الابداع ، والابداع هو خلقك ما لم يخلقه غيرك وتنكّب السبل المطروقة والقوالب المألوفة مع الشعور بعزة النفس والاخلاص لها قبل الاخلاص للناس . فمن اخلص لنفسه اخلص لغيره . ولعلّ الاخلاص من أبرز ما اتصف به نسيب

عريضه وقامه . فأنت قد تأخذ على شعره شتى المآخذ . ولكنك لا تستطيع ان تطعنه في اخلاصه. فهو شعر صادق ينضح من وجدان صادق وخيال وثاب خلاق.

ما من شك في ان معرفة صاحب «الأرواح الحائرة» للغة الروسية وآدابها كان لها أبعد الأثر في توجيه مواهبه ذلك التوجيه من حيث التجديد في صياغة القوالب وانتقاء المواضيع. اما من حيث الشعور والنزعة الى التصوف فهو ليس مديناً بذلك الا لفطرته السليمة ولتربيته الشرقية . وما اريد ان اوهمك ان كل ما نظمه نسيب عريضه كان من النوع الذي عرضته عليك حتى الآن. فقد كان مجدداً حتى في غزله وحكمه ووطنياته . فاسمعه يتغزل :

« تعالي صباحاً الى غرفتي
وحلي بلطف عرى رقدتي
لعلي اعود الى يقظتي » ...

واسمعه يرثي اخاه :

يا صاح ، يا ابن ابي وامي
ما كوجدي اليوم وجدُ
روحٌ تخاطب شطرها
والشطرُ يُعرض لا يردُّ
ورتاج صرح الموت دونها
وسورٌ لا يُهَدُّ
افتخرس الارواح اذ تنأى
وتنسى من تَوَدّ ؟
أم تضمحلّ فما لها
عَوْدٌ ولا امل وخلد ؟ »

واليك مثالاً من وصفه في قصيدة يخاطب بها « البرق » :

« أبرقاً في الدجى جنّا
وغلغل بعد ما اسنى
تملّص ، فالتظى ، فانساب
يورث بعده الظنّا »

واليك نموذجاً من ابياته الحكمية :

« لو حدق المرء في البرايا
لَشَام ما لا ترى العيونْ
ما حولنا عالَمٌ خفيٌّ
تدركه الروح في السكون
كم مبصرٍ لا يرى واعمى
يرى ويدري الذي يكون
يا ويل مَن لا يرون شيئاً
إلا اذا فتّحوا العيونْ »

امّا بيته في قصيدته المشهورة « سيّان » اذ يقول : « كم مومسٍ تمضي عذراء للرمس » فبيت يتمنى المعري في لحده لو انه جرى على لسانه قبل ان يجري على لسان شاعر جاء بعده بألف سنة .

هذا وشلٌ من بحر عرضته عليك من شعر نسيب عريضه . وهو كافٍ ليبعث فيك الشعور بانك في حضرة شاعر يستمد الهامه من معين صافٍ لا نصيب فيه للتملّق والتدجيل والتصنع والتبرّج . وذلك المعين هو نفس الشاعر . وهي نفس حسّاسة ، حَيِيّة ، صادقة ، منزهة عن الخساسة والشعوذة، توّاقة الى الجمال المطلق والحق الذي منه ينبع واليه يرجع كل حق . فما أبعد الشقّة بينها وبين الأنفس التي لا تحجم عن ابتياع المجد بشعر مزيّف وشعور مستعار !

ولعله من الانصاف لصاحب « الارواح الحائرة » ان اذكر مواقفه الوطنية فاختتم هذا المقال بقصيدته الرائعة التي نظمها إبّان الحرب العالمية الاولى بعنوان « النهاية » وكأنها نظمت لزمان نحن فيه :

« كفّنوهُ
وادفنوهُ !
أسكنوه
ظلمة اللحد العميقْ
واذهبوا ، لا تندبوه فهو شعب
ميّت ليس يفيق .

ذلّلوهُ ،
قتّلوهُ ،
حمّلوه
فوق ما كان يطيقْ
حمل الذلّ بصبرٍ من دهورٍ
فهو في الذلّ عريق

هَتْكُ عرضٍ ،
نهب أرضٍ ،
شنق بعضٍ ،
لم تحرّك غضبهْ
فلماذا نذرف الدمع جزافا ؟
ليس تحيا الحطبه !

لا وربّي
ما لشعبِ
دون قلبِ
غير موتٍ من هِبهْ
فدعوا التاريخ يطوي سفر ضعف
ويصفّي كُتُبه .

★

رب ثارٍ ،
ربّ عارٍ ،
ربّ نارٍ
حرّكت قلب الجبانْ
كلّها فينا ولكن لم تحرّك
ساكناً إلا اللسانْ . . . »

ميخائيل نعيمه